٨٦٢٧
٦٩٦٤

دور الرّسول الأعظم في تفسير القرآن الكريم

الدكتور مرتضى الايرواني النّجفي
استاذ مشارك ـ قسم علوم القرآن والحديث
كليّة الهيّات ـ جامعة الفردوسي مشهد

ملخّص المقال :

تناول البحث موضوع دور الرسول «ﷺ» في التفسير، وقد تركز البحث في المقدار الذي شمله تفسير النبي «ﷺ» من النص القرآني. فذهب بعضهم إلىٰ أنّ الرسول «ﷺ» لم يفسّر إلّا قدراً يسيراً من القرآن الكريم، بينما ذهب آخرون إلىٰ أنّ تفسيره شمل القرآن كلّه، وذهب آخرون إلىٰ غير ذلك، كما تعرض البحث إلى أوجه بيان السنّة للقرآن الكريم وظهر من البحث أنّ الأوجه التي ذكرت لا تستوعب كل السنّة المفسّرة إلّا بشيء من التكلّف، فالأولىٰ استقراء الأوجه بدراسة جديدة.

الكلمات الرئيسة : التفسير، نصّ الوحي، السنّة، بيان، الفهم الإجمالي.

المقدّمة :

شغل تفسير الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» بال العلماء قديماً وحديثاً، ودرج المحقّقون على بحث الموضوع عند حديثهم عن التفسير في عصر الرسالة هذا عند المحدثين. أما القدماء فإنّهم أشاروا إلى الموضوع في مقدمات كتب التفسير. وهناك من عرض للموضوع في كتب علوم القرآن.

ويضمّ الموضوع نقطتين اساسيتين هما: القدر الذي تناوله النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بالتفسير من القرآن الكريم، وأوجه تفسير النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» للقرآن. ونحاول في بحثنا هذا عرض الأقوال المطروحة في المسألة وانتخاب الرأي الذي تدعمه الأدلّة المقبولة.

للنبيّ «صلى الله عليه وآله وسلم» دور في تفسير القرآن لا يمكن تغافله أو صرف النظر عنه رغم الموروث الكبير للنقول التفسيرية التي حفلت بها كتب التفسير، وغيرها ممّا نُقل عن أئمّة أهل البيت «عليهم السلام» والصحابة والتابعين. وإذا ضمّ الموروث التفسيري أقوالاً لغير النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» أكثر ممّا نُقل عن الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» فهذا لا يعني أنّ دور غيره أكبر من دوره، فهناك عوامل متعدّدة أدّت إلىٰ ذلك.

وقد كان النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» يفسّر ما أبهم من ألفاظ القرآن، ويُبيِّن ما أجمل من أحكامه، ويكمل ما احتاج إلى تكميل في مطالبه الفقهيّة، ويتمّم ما جاء مختصراً في قصصه، وغير ذلك. وقد أُعدّ الرسول الأكرم «صلى الله عليه وآله وسلم» لذلك كما أُعدّ لغيره ليُحدث التغيير المنشود.

وقد تعرّض العلماء قديماً وحديثاً إلى هذا الموضوع، وتطرقوا إلى جوانبه المختلفة. ونحاول فيما يأتي بيان الأقوال في ذلك، وذكر الرأي المختار. ويقع البحث في محورين رئيسين هما: المقدار الذي فسّره النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» من القرآن، وأوجه بيان تفسير الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» للقرآن الكريم.

وقبل الحديث عن هذين المحورين نشير إلى موضوع تفاوت الصحابة في فهم القرآن الكريم استكمالاً للبحث.

تفاوت الصحابة في فهم القرآن وتفسيره:

لم يكن صحابة رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» على مستوىً واحد في فهم القرآن من جهة، ولا في الاهتمام بتفسيره والسؤال عنه.

وتفاوت الصحابة في النقطة الأولىٰ أمر طبيعي لاختلاف المستوىٰ الفكري للأفراد من جهة، ولتباين ملازمتهم للرسول «صلى الله عليه وآله وسلم»، كما أنّ إحاطتهم بالملابسات التي أحاطت نزول الآيات ورافقتها لم تكن واحدة رغم اطلاعهم على معظم مفردات النص القرآني وتوفّر الفهم الاجمالي للقرآن الكريم.

أمّا السؤال عن القرآن والإهتمام بالوصول إلى معانيه وأغراضه، فيستفاد من النصوص الواردة أنّ الصحابة لم يكونوا على مستوىً واحد في ذلك.

فقد ورد عن سهل بن حنيف أنّ أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» كانوا يرون أنّ الله ينفعهم بالاعراب ومسائلتهم النبي «صلى الله عليه وآله وسلم». فقد ذكر أنّ أعرابياً قال لرسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» إنّ الله ذكر شجرة مؤذية في القرآن الكريم، ولم أكن أرىٰ شجرة مؤذية في الجنّة. فسأله رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» عن الشجرة فقال: هي شجرة السدر، فإنّ لها شوكاً. فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»: «في سدر مخضود (الواقعة / ٢٢) يخضد الله شوكه فيجعل مكان كلّ شوكة ثمرة، وتتفتّق كلّ ثمرة عن اثنين وسبعين لوناً، ما فيها لون يشبه الآخر». (الحاكم النيسابوري: ٢/٤٦٧)

وورد في نقل آخر أنّ أميرالمؤمنين «عليه السلام» قال: ليس كل أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» كان يسأله ويستفهمه، حتىٰ كانوا ليحبّون أنْ يجيء الاعرابي أو الطارىء فيسأله حتىٰ يسمعوا. قال: وكان لا يمرُّ من ذلك شيء إلّا سألت عنه وحفظته.

فهذان النّصان وغيرهما يدلان على:

الف ـ أنّ الصحابة لم يكونوا على شاكلة واحدة في سؤالهم النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» وسعيهم في استثمار الفرص لكسب معاني القرآن ومقاصده.

ب ـ أنّ أميرالمؤمنين علي «عليه السلام» كان له النصيب الأوفر في فهم معاني القرآن لأنّه لم يكن كغيره منتظراً مجيء أعرابيّ كما تدلّ الروايتان، بل كان يسأل بنفسه عن ذلك،

ويؤيّده ما نُقل عنه أنّه قال: «واللهِ ما نزلت آية إلّا وقد علمت فيم نزلت، وأين نزلت، وإنّ ربي وهب لي قلباً عقولاً، ولساناً سئولاً» (ابونعيم، ٦٧/١) ولذلك قال بحق: «سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء إلّا أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلّا وأنا أعلم أبليلٍ نزلت أم بنهار، أم في سهل، أم في جبل». (المصدر السابق نفسه)

وما تقدم يعطينا صورة عن الجو الذي كان المسلمون يعيشونه وهم معاصرون لنزول الوحي والنبي «ﷺ» بين ظهرانيهم.

المقدار الذي فسّره النبي من القرآن:

اختلف العلماء في القدر الذي فسّره النبي «ﷺ» من القرآن الكريم، مع اتّفاقهم على الدور الريادي الذي كان يقوم به من تفسير كلام الله تعالى، والكشف عن أهدافه العالية، وتقريبه إلى مستوىٰ الناسِ كلّ حسب قابليّاته الفكريّة واستعداده الخاص، وتحديد معطياته، وحلّ ما يعترض المسلمين من مشاكل في فهم النص القرآني. ويبدو من تتبّع كلام العلماء أنّ جذور هذا الموضوع كان ضارباً في أعماق القرون الأولىٰ على الرغم من أنّ أوّل من يُطرح اسمه في هذا الميدان ابن تيميّة، ثمّ تتابع كلام العلماء بعده. والدليل على ما نراه أنّ الطبري وهو يوجّه ما نُقل من أنّ رسول الله «ﷺ» ما كان يفسّر آياً إلّا بعدد علّمه تفسيرهنّ جبريل، قال: «ولو كان تأويل الخبر عن رسول الله «ﷺ» انه كان لا يفسر من القرآن شيئاً إلّا آياً تعدّ هو ما يسبق إليه أوهام أهل الغباء من أنّه لم يكن يفسّر من القرآن إلّا القليل من آيه واليسير من حروفه ...» (الطبرى: ٣٠/١) فهذا يدل على أنّه كان من يعتقد أنّ رسول الله «ﷺ» فسّر القليل من القرآن، لذا ردّ عليه الطبري بأنّه فسّر أكثره.

وباستقراء أقوال المحقّقين في ما فسّره الرسول «ﷺ» تبدو عدة أقوال هي:

الف ـ فسّر الرسول «ﷺ» قليلاً من القرآن الكريم.

ب ـ شمل تفسير الرسول «ﷺ» الكثير من القرآن الكريم.

ج ـ فسّر الرسول «ﷺ» كلّ القرآن الكريم.

د ـ شمل تفسير النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» جميع ما في القرآن الكريم. «أمّا بياناً بالنص أو ببيان تفاصيل أصول الشريعة وفروعها، ولا سيّما إذا ضممنا إليه ما ورد عن الأئمّة من عترته». (معرفة: ١/١٧٩)

والفرق بين هذا وما قبله ـ مع أنّهما يجعلان تفسير النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» شاملاً القرآن الكريم جميعه ـ أنّ الأخير يصرّح بجعل السنة التي تناولت أصول الشريعة والأحكام مفسّرة للقرآن، بينما لم يشر ما قبله إلى هذا. وإذا لم يكن رأي ابن تيميّة ومن تبعه ناظراً إلى جعل هذه السنة مفسّرة جاز اعتبار ما ذكره الاستاد معرفة رأياً يختلف عمّا قبله.

هـ ـ كان تفسير النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» القرآن على نمطين:

نمط لعامة المسلمين، ونمط للخاصة منهم كأميرالمؤمنين «عليه السلام»، وقد تناول الثاني القرآن كلّه بالتفصيل.

وسنفصّل القول في كلّ مورد من هذه الموارد حسبما يقتضيه المقام.

الرأي الأوّل:

وهو الذي يذهب إلى أنّ النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» فسّر بعض معاني القرآن الكريم، وعلى حدّ تعبير بعضهم «لم يبيّن إلّا القليل» (الذهبي: ١/٥١). وقد ذهب إلى هذا السيوطي، ومن قبله الخويي. (المصدر السابق: ١/٤٩) ويستند هذا الرأي إلى:

١ ـ ما نُقل عن عائشة أنّها قالت: «ما كان رسول الله يفسّر شيئاً من القرآن إلّا آياً تعدّ علّمه إيّاهن جبريل.» (الطبري: ١/٢٩). وفي رواية «بعدد» (القرطبي: ١/٣١) وهذا يدلّ على أنّ النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» فسّر بعض الآيات التي علّمه جبريل تفسيرهنّ وترك الباقي.

وقد تناول العلماء هذا الحديث وتكلّموا فيه بما يُخرجه عن مجال الاستشهاد به على المدّعى، ويقع كلامهم في محورين: السند والمتن (الدلالة).

أمّا سند الحديث فقد جاء فيه محمّد بن جعفر الزبيري الذي تكلّموا فيه، ولم يرضوا حديثه. (الطبري: ١/٣٠؛ الذهبي: ١/٥٢)

أمّا دلالته فقد حُمل الحديث على وجهين:

الأوّل: أنّ المراد منه مغيّبات القرآن وبيان مجمله، ونحو ذلك ممّا لا سبيل إليه إلّا بتوفيق من الله. (ابن عطيّة: ١/٢٩؛ القرطبي: ١/٣١؛ أبوحيان: ١/٢٥). وعلى حدّ تعبير بعضهم «أنّ من تأويل القرآن ما لا يُدْرك علمه إلّا ببيان الرسول ﷺ» (الطبري: ١/٣٠).

الثاني: أنّ الحديث ناظر إلى جانب رعاية الترتيب في تفسير النبي «ﷺ» للقرآن، أو ترتيب نزول القرآن وتفسيره. بعبارة أخرىٰ أنّ المراد من الحديث أنّ رسول الله «ﷺ» ما كان يفسّر القرآن إلّا جزءاً جزءاً بعد مجيء جبريل بالتفسير، وهذا يعني رعاية جانب الترتيب في تعليم القرآن الكريم.

ويبدو أنّ الوجه الثاني أقرب إلى القبول إن أريد الاستدلال بالحديث.

والذي نراه أنّ الاستناد إلى الحديث للدلالة على أنّ النبي «ﷺ» لم يفسّر القرآن كلّه غير صحيح على فرض صحة سنده، لأنّ «كان» إذا كان خبرها مضارعاً دلّت على الاستمرار والدوام، ومعنىٰ الحديث على هذا: أنّ دأب النبي «ﷺ» كان عدم تفسير القرآن إلّا بعد مجيء جبريل بتفسير آيات قليلة ثمّ يفسّر آيات قليلة أخرىٰ بعد مجيء جبريل بتفسيرها، هكذا.

٢ـ لم يأمر الله نبيّه بتفسير الآيات بالنص في جميع الآيات ليتدبر المسلمون في آيات الله وكتابه. بعبارة أخرىٰ أنّ الله أمر نبيّه اجمالاً ببيان القرآن، ولم يأمره بتفسير كلّ آية قولاً وفعلاً.

وأورد على هذا بأنّ النبيّ «ﷺ» مأمور بالبيان بنص قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل: ٤٤) كما أنّه إنْ أشكل القرآن كلّه على الصحابة ما كان للنبيّ «ﷺ» أنْ يمتنع عن تفسير آية آية بمقتضىٰ أمر الله نبيّه بالبيان.

والذي نراه أنّ الاستدلال بهذا غير مقبول، لأنّ النبي «ﷺ» مادام مأموراً بالبيان بنص الآية المتقدّمة، فهذا يكفي لأنْ يؤدّي مهمته أنْ يبيّن القرآن كلّه.

ويبدو أنّ هذا الدليل لم يكن مستقلاً في نفسه، بل جاء توجيهاً وردّاً علىٰ من قال إنّ

النبيّ «صلى الله عليه وآله وسلم» مأمور ببيان القرآن كلّه.

٣ ـ واستدلوا بأنّ تفسير كلّ معاني القرآن الكريم متعذّر، ولا يمكن ذلك إلّا في آيات قليلة، وما بقي يستنبط بأمارات ودلائل أخرىٰ.

وردّ هذا بأنّه دعوىٰ غير مسلّمة.

والذي نراه أنّ هذا الاستدلال غير موجّه؛ لأنّه ما المانع العقلي من تفسير الآيات عند نزولها من قبل النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» وتفسير الآية عبارة فعبارة غير لازم.

٤ ـ وممّا استدلّوا به على أنّ النبيّ «صلى الله عليه وآله وسلم» لم يفسّر القرآن كلّه دعاؤه لابن عبّاس: «اللهمّ فقّهه في الدين وعلّمه التأويل»، (أبونعيم، ٣١٦/١ وفيه: اللهمّ أعطه الحكمة وعلّمه التأويل) بتقرير أنّه لو كان النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بيّن معاني القرآن كلّها لما كان في اختصاص دعائه لابن عباس فائدة لاستواء الجميع في معرفة القرآن ومعانيه.

ويمكن الاجابة عن هذا بأنّ بيان معاني القرآن لا يلزمه تساوي الجميع في المعرفة والاستنباط، كطلاب الصف الواحد، فإنّهم لا يتساوون في فهم الدرس على الرغم من أنّ الكتاب واحد والمعلّم واحد، فكذلك الحال بالنسبة إلى معاني القرآن. هذا إذا سلّمنا بصحة هذا الدعاء، ونسبته للرسول «صلى الله عليه وآله وسلم». على أنّ بعضهم اعترض على هذا بأنّه مع التسليم بأنّ النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» لم يفسّر كلّ القرآن فلا يدلّ على أنّه فسّر القليل النادر منه. (الذهبي: ٥٢/١)

الرأي الثاني:

وهو الرأي القائل إنّ الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» فسّر الكثير من معاني القرآن ولم يفسّره كلّه. (المصدر السابق: ٥٣/١) والدليل على ذلك:

الف ـ اختلاف الصحابة في تأويل بعض آيات القرآن. ولو كان الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» بيّن كل معاني القرآن ما اختلفوا فيه.

ويمكن للمخالف أنْ يردّ هذا بأنّ الاختلاف جاء من قبل الرواة، وليس من الصحابة أنفسهم، أو من الصحابة لإظهار شخصيّتهم ومكانتهم العلميّة. أمّا مسألة عدالة الصحابة

فلها مكان آخر تُبحث فيه. يُضاف إلى ذلك أنّ هذا الاستدلال بعد التسليم به يدلّ على عدم تفسير القرآن كلّه، ولا يدلّ على عدم تفسير القليل. ومعلوم أنّ الذهبي ردّ القولين كليهما واختار أنّ الرسول «ﷺ» فسّر الكثير، ونسبَ أصحاب الرأيين إلى المغالاة.

ب ـ الاستناد إلى وجود المتشابه الذي لا يعلمه إلّا الله، بالإضافة إلى ما نُقِل عن ابن‌عباس في تقسيم معاني القرآن الكريم إلى أربعة أقسام: قسم تعرفه العرب من كلامها، وقسم لا يُعذر أحد بجهالته، وقسم تعرفه العلماء، وقسم لا يعلمه إلّا الله. ومعلوم أنّ النبي «ﷺ» لم يفسّر الأوّل والثاني والرابع، لأنّ الأوّل لا يحتاج إلى تفسير، لنزول القرآن بلغة العرب، ولا الثاني لأنّ الافهام تتبادر إلى فهمه، ولا يعذر أحد بجهالته ولا الرابع لأن الله استأثر بعلمه، ولم يطلع رسوله «ﷺ» فكيف يبيّنه لهم. وما فسّره يندرج تحت القسم الثالث وهو الذي تفسّره العلماء وهو ما يمكن للعلماء معرفته، ويرجع إلى اجتهادهم، كبيان المجمل، وتخصيص العام، وتوضيح المشكل، وما شابهه من كل ما خفيَ معناه والتبس المراد به، وكذلك يشمل بعض المغيبات التي أخفاها الله عن المسلمين وأطلع رسوله «ﷺ» عليها، وأمره ببيانها لهم. (المصدر السابق نفسه)

ولا يمكن التسليم بهذا، لعدم وجود ما استأثر الله بعلمه في القرآن الكريم، وعدم قبول التفسير القائل إنّ المتشابه ما استأثر الله بعلمه، كما أنّ القسم الأوّل وهو الذي تعرفه العرب من كلامها لا يستوي الجميع فيه، لما روي من أنّ بعض الصحابة لم يفهم المقصود من كلام الله مع ظهوره، كما نقل عن عدي بن حاتم من أنّه لم يفهم المقصود من قوله تعالى ﴿ وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾، فسأل رسول الله «ﷺ» فبيّنه له. (الطبري: ٢/١٠٠؛ البخاري: ٢/٢٣١) وتذهب بعض النقول التفسيريّة إلى مدىً أبعد، فيفهم منها أنّ المعاصرين للوحي كانوا لا يعرفون معاني بعض الالفاظ المفردة، واستمرت الحال بهم إلى ما بعد حياة الرسول «ﷺ» كما نقل في تفسير «فاطر» و«الأبّ» و«التخوّف» وما نقل عن الحسن البصري وهو تابعي في «الأريكة» أدهىً وأمر.

ويحقّ لسائل أنْ يسأل فيقول: إذا كان الرسول «ﷺ» بيّن هذا وفسّره فما موقف

العلماء في هذا؟ هل ردّدوا ما قاله الرسول «ﷺ» أو اجتهدوا في ذلك؟ فإن كان الأوّل فكيف نوفق بينه وبين استدلاله «تفسره العلماء» والعلماء بما فيهم الصحابة لم تفسره، وإنّما ردّدت ما قاله الرسول «ﷺ» وإنْ كان الثاني فكيف اجتهد العلماء مع مجيء التفسير من النبي «ﷺ»؟ يضاف إلى ذلك اختلاف الصحابة والتابعين في كثير من المسائل المجملة والمغيّبات.

والذي نراه أنّ الذهبي لم يكن مبتكر هذا الرأي وصاحبه، ولا أوّل من قاله، بل سبقه الطبري إلى ذلك وهو يتحدّث عن «ذكر بعض الإخبار التي غلط في تأويلها منكر والقول في تأويل القرآن» ومنها القول المروي عن عائشة. (الطبري: ١/٢٩) ويدلّ على لذلك:

الف ـ تصريحه بأنّ في القرآن ما استأثر الله بعلمه.

ب ـ وصفه الذين فهموا قول عائشة إنّ النبي «ﷺ» فسّر القليل من آيات القرآن بأنّهم من أهل الغباء.

فعند الجمع بين هذين تكون النتيجة أنّ النبي «ﷺ» فسّر الكثير من القرآن الكريم.

ولم يكتف الطبري بهذا بل جعل كلاًّ من الآية التي أمر الله بها نبيّه بالبيان، وقيام الحجة على أنّ النبي «ﷺ» قد بيّن، وصحة الخبر المنقول عن ابن‌مسعود في كيفيّة تعلّم القرآن (ما ينبيء عن جهل من ظنّ أو توهّم أنّ معنىٰ الخبر الذي ذكرنا عن عائشة عن رسول الله «ﷺ» أنّه لم يكن يفسّر من القرآن شيئاً إلّا آياً تعد هو أنّه لم يكن يبيّن لأمّته من تأويله إلّا اليسير القليل». (الطبري: ١/ ٣٠)

الرأي الثالث:

وهو رأي من ذهب إلى أنّ النبي «ﷺ» بيّن القرآن كلّه وفسّره، ونسب هذا الرأي إلى ابن تيميّة. (الذهبي: ١/٤٩؛ معرفة: ١/١٧٦) والذي يبدو لي ـ والله أعلم ـ أنّ ما نسب لابن تيميّة لا يوافق ما جاء في كتابه الذي استُند إليه «مقدّمة في أصول التفسير» والدليل علىٰ ذلك:

الف ـ إطلاق عبارته وعدم تقييدها بما يدل على تفسير كلّ القرآن حيث قال: «فصل في أنّ النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بيّن لأصحابه معاني القرآن يجب أنْ يُعلم أنّ النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بيّن لأصحابه معاني القرآن، كما بيّن لهم ألفاظه، فقوله تعالىٰ ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ يتناول هذا وهذا». (مقدمة في أصول التفسير: ٣٥)

ب ـ يبعد أنْ يخرج ابن تيميّة وهو الملقب بشيخ الاسلام عن مذهب السلف وجمهور أهل السنة في أن تأويل المتشابه مما اختص الله بعلمه، ولم يُطلع أحداً عليه. فإذا ضممنا إلى هذا ما نقله عن ابن جرير الطبري عن ابن عباس في تقسيم التفسير إلى أربعة أقسام منها تفسير لا يعلمه إلّا الله، وقبوله كأحد المسلّمات، لأنّه لم يعلّق عليه من جهة، وذكره وهو يتحدّث عن تحرّج بعض السلف عن تفسير القرآن تبيّن ما يراه ابن تيمية.

وذكر الذهبي أربعة أدلة تمسّك بها القائلون بذلك، ورد الاوّلان منها في رسالة ابن تيميّة:

الف ـ قوله تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (النحل: ٤٤) والبيان يتناول معاني القرآن كما يتناول ألفاظه، بعبارة أخرىٰ أنّ التبيين الواجب يشمل بيان الألفاظ للناس وتبليغها إيّاهم ويشمل بيان مقاصده ومعانيه، ولو لم يبيّن معانيه كان مقصّراً بالبيان الذي كلّفه الله به.

وهذه الآية لا تدلّ نصّاً وقطعاً على أنّ وظيفة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بيان القرآن كلّه حتى يكون في حالة عدم بيان القرآن كلّه مقصّراً في وظيفته، بل هو مأمور بالبيان عند السؤال.

ب ـ ما روي عن ابن مسعود في كيفيّة تعلّم القرآن الكريم وحفظه، وأنّ المسلمين كانوا يحفظون القرآن عشر آيات فعشراً ولا يجاوزونها حتّىٰ يتعلمون معانيها وما فيها من العمل.

وهذا لا يدل على المدّعىٰ، لأنّ غاية ما يفيده كيفيّة حفظ القرآن تعلّمه من جهة، وأنّهم ما كانوا يجاوزون ما حفظوه حتّىٰ يفهموا المراد منه، وهذا لا يعني أنّه من النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» حتماً، فقد يكون كذلك، وقد يكون بالتدبّر في الآيات.

ح ـ إنّ العادة تمنع أنْ يُقرأ كتابٌ ويُتعلّم ما فيه دون تعلّمه واستشراحه، ككتب الطبّ

والحساب وغيرهما، فكيف بالقرآن الكريم، وفيه سعادتهم ونجاتهم في الدنيا والآخرة.

وفيه أنّه لا يدلّ على أنّ التفسير كان بالرجوع إلى النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بل قد يكون بالتدبّر فيه.

د ـ ما روي من أنّ آخر ما نزل آية الربا، وقد توفي رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» قبل أن يفسّرها وهذا يدلّ على أنّه كان يفسّر كل ما نزل، وإلّا لما كان لهذا التخصيص وجه.

ويمكن أن يُجاب عن هذا بأنْ هذه الآية مما أشكل معناها على الصحابة وكانت بحاجة إلى تفسير، ولكن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» توفي قبل تفسيرها وبيان المقصود منها.

الرأى الرابع:

وذهب صاحب هذا الرأي إلى «أنّه «صلى الله عليه وآله وسلم» بيّن لأمّته وأصحابه بالخصوص جميع معاني القرآن الكريم، وشرح لهم جلّ مراميه ومقاصده إمّا بياناً بالنصّ أو ببيان تفاصيل أصول الشريعة وفروعها، ولا سيّما إذا ضممنا إليه ما ورد عن الائمّة «عليهم السلام» من عترته في بيان تفاصيل الشريعة ومعاني القرآن». (معرفة: ١/١٧٩)

ويحمل المتن المتقدم مستنده فيه، وهو أنّ تفاصيل أصول الشريعة الواردة عن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» تُعدّ تفسيراً وإن لم تذكر عند تفسير آية ما، يضاف إلى ذلك ما ورد عن عترته الطاهرة «عليهم السلام» وهو كثير جداً.

وقد يستغرب البعض من وجود قلّة التفسير المأثور عن رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» بالنص. (المصدر السابق نفسه) وأجاب عن ذلك بوفرة الوسائل لفهم النص حينذاك، يضاف إلى ذلك أنّ جلّ بيان الشريعة يُعدّ تفسيراً لمبهمات القرآن وتفصيلاً لما أُجمل فيه.

ويمكن تلقّي هذا الرأي بالقبول إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ المعصوم «عليه السلام» قرآن ناطق، فيكون كلامه كلّه تفسيراً، كما أنّ حديث العترة هو حديث جدّهم، ولا فرق في ذلك بينه وبين الحديث الوارد عن رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» من حيث الحجيّة كما هو معتقد الشيعة. ولكن محل النزاع هنا ما ورد بالنص لتفسير آية ابتداءً أو جواباً لسؤال سائل.

الرأي الخامس :

وهو الرأى الذاهب إلىٰ أنّ النبي «ﷺ» على مستويين أو نمطين، الأوّل لعامة المسلمين والثاني للخاصة. (الحكيم: ٦٩)

ويقوم هذا الرأي على أساس وجود تناقض بين رأيين في حدود التفسير الذي مارسه رسول الله «ﷺ». الرأي الأول يذهب إلىٰ أنّ الرسول «ﷺ» لم يفسّر إلّا آياً قلائل والدليل على ذلك: ما ورد عن عائشة. ولندرة ما صح عن صحابة النبي «ﷺ» من التفسير المنسوب إليه، يضاف إلى ذلك أنّ الكثرة الكاثرة منهم تحيّروا في معنىٰ آية، أو كلمة من القرآن الكريم، وغاب عنهم حتّىٰ المدلول اللفظي للنص القرآني.

ويقابله الرأي الثاني الذي يذهب إلىٰ أنّ الرسول «ﷺ» كان يقوم بعملية تفسير شامل للقرآن الكريم. بدليل قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقره: ١٥١)، وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٤٤). ثمّ أنّ طبيعة الأشياء تدلّ على أنّ النبي «ﷺ» فسّر القرآن تفسيراً شاملاً كاملاً لعدم كفاية الفهم الإجمالي للقرآن لتفهّم النص فهماً شاملاً دقيقاً من جهة، ولأنّ القرآن الكريم ما كان في حياة المسلمين مجرد كتاب يُتلىٰ في عباداتهم، وإنما كان الوسيلة لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وبناء الشخصيّة الكاملة، ولا يمكن ذلك إلّا بشرحه شرحاً كاملاً شاملاً يصل به المسلمون إلى روحه، ويندمجون في أهدافه ومفاهيمه، وفي غير هذه الصورة تتحكم في تفسيره الرواسب والمسبقات الذهنيّة التي كانت تتحكم في كثير من الأذهان حينذاك.

والحلّ المنطقي للخروج من هذا التناقض القول بأنّ النبي «ﷺ» فسّر القرآن على مستويين: المستوى الاوّل عام في حدود الحاجة، ومتطلبات الموقف، ولهذا لم يستوعب القرآن كلّه. والمستوىٰ الثاني خاص شامل بهدف ايجاد من يحمل تراث القرآن حملاً يتيح له أنْ يكون مرجعاً للأمّة في التفسير كما يكون مرجعاً في الفقه وغيره. وهذا التفسير على المستوىٰ الخاص يتفق ومسؤولية النبي «ﷺ» في ضمان فهم الأمّة

للقرآن، وصيانة المجتمع الاسلامي من الانحراف.

والذي نراه أنّ هذا الرأي أقرب إلى المنطق وألصق بالواقع الاسلامي من غـيره، لأنّ لأميرالمؤمنين «عليه السلام» موقعاً خاصّاً في الفكر الإسلامي لم يبلغه أحد غيره من صحابة رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم». ويمكن الاستدلال على مكانة الإمام علي «عليه السلام» العـلميّة بـما يأتي:

الف ـ لم يحفظ التاريخ أنّ عليّاً «عليه السلام» وقف عاجزاً أمام سؤال في تفسير القرآن كما نقل غيره.

ب ـ اعتراف ابن‌عبّاس وغيره بالدور الريادي للإمام علي «عليه السلام» في التفسير، وأن نسبة علمه بالقرآن إلى علم علي «عليه السلام» كالغدير إلى البحر. (ابن أبي‌الحديد: ١٩/١)

ج ـ قوله في خطبته الشقشقيّة: «ينحدر عنّي السيل ولا يـرقىٰ إليّ الطـير». (نـهج البلاغه، الخطبة الشقشقيّة)

د ـ قوله: «فما نزلت على رسول الله آية من القرآن إلّا أقرأنيها، وأملاها عليّ، فكتبتها بخطي، وعلّمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها وخاصّها وعامّها». (الكليني، كتاب فضل العلم، باب اختلاف الحديث)

هـ ـ قوله في قسم آخر من كلامه: «كُنتُ أوّل داخل على النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» وآخر خارج من عنده، وكنت إذا سألتُ أُعطيت، وإذا سكتُّ أُبتديت، وكنت أدخل على رسول الله في كلّ يوم دخلة، وفي كل ليلة دخلة وربّما كان ذلك في بيتي، يأتيني رسول الله أكثر ذلك في منزلي. فإذا دخلت عليه في بعض منازله أخلىٰ بي وأقان نساءه، فـلم يـبق عـنده غيري، وإذا أتاني لم يُقم فاطمة ولا أحداً من ولدي، وإذا سألتـه أجـابني، وإذا سكتُّ ونفدت مسائلي ابتدأني». (المصدر السابق نفسه؛ الاسكافي: ٣٠٠)

وقد حوت المصادر نماذج أخرىٰ تدلّ على دور الامام علي «عليه السلام» في فهم القرآن الكريم، ولم نذكرها اكتفاء بما تقدّم.

وما ذكرناه يدلّ على تقدّم أميرالمؤمنين «عليه السلام» ودوره الريادي في تفسـير القـرآن الكريم من جهة، وعلى أنّ ثمة عناية خاصة من قبل رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» بعلي «عليه السلام»

تؤكد ما قلناه في أنّه «صلى الله عليه وآله وسلم» كان يعدّه ليكون مرجعاً للأمّة في تفسير القرآن والوصول إلى أهدافه ومقاصده. ويدلّ النص الأخير بوضوح أنّ هذا الدور المنشود لم يكن منحصراً بعلي «عليه السلام» بل كان النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» يعد أهل البيت لذلك أيضاً، فلم يكن يخرجهم إذا دخل علىٰ عليّ «عليه السلام» كما كان يفعل بنسائه عند دخول علي «عليه السلام» عليه.

فالنبي «صلى الله عليه وآله وسلم» فسّر القرآن الكريم على مستويين: للعامة وللخاصّة وجعل الثاني كاملاً شاملاً لتحمّل أعباء بيان القرآن وتفسيره بشكل صحيح بعد الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم».

حجم التفسير المأثور عن الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم»

اختلف العلماء في حجم التفسير المأثور عنه «صلى الله عليه وآله وسلم» وكميّته، فذهب بعضهم إلى قلّة الوارد منه. وقد ذكر السيوطي في كتابه الاتقان ما أمكنه جمعه مما صُرّح بنسبته إلى الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» فكان ما يقارب المائتين وخمسين مورداً عدا الأباطيل والموضوعات حسب قوله. وما جمعه يشمل الصحيح والحسن والضعيف والمرسل والمعضل كما قال. (الاتقان: ٤/٢٩٨) وهذا المقدار ضئيل بالجملة. فهناك موارد لم يذكرها السيوطي وقد ذكرها آخرون. فالحاكم الحسكاني ذكر في كتابه شواهد التنزيل موارد كثيرة من التفسير المصرّح برفعه إلى الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم»، ولو رحنا نتتبّع بقية الكتب لوجدنا موارد أُخرىٰ لم يذكرها السيوطي. ولو ضممنا إلى هذا ما ورد عن طريق أهل البيت «عليهم السلام» لكان العدد يفوق ما جاء في الاتقان كثيراً.

ويعلّل الاستاذ معرفة قلة التفسير الوارد بالنص عن الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» بـ:

الف ـ وفرة الوسائل لفهم معاني القرآن في عصر الرسالة.

ب ـ أنّ جلّ بيانات الشريعة كانت تفسيراً لما أُبهم من القرآن وتفصيلاً لما أُجمل فيه. (التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب: ١/١٧٩)

ومن يراجع كتب التفسير يلاحظ أنّ التفسير المنسوب للرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» ورد بأشكال مختلفة:

الف ـ قسم منه يمثّل السيرة العمليّة للرسول «صلى الله عليه وآله وسلم». وبما أنّ سنّة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»

مفسّرة لنص الوحي ذكرت عند تفسير الآية. ومثاله ما رواه محمّد بن يعقوب عن علي بن ابراهيم القمي عن أبيه عن حماد عن حريز عمّن أخبره عن أبي عبدالله «عليه السلام» قال: مرّ رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» على كعب بن عجرة والقمل يتناثر من رأسه وهو محرم، فقال له: أتؤذيك هوامك؟ فقال: نعم. فأنزلت هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ (البقرة: ١٩٦)، فأمره رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» أنْ يحلق وجعل الصيام ثلاثة أيّام والصدقة على ستة مساكين لكلّ مسكين مدّان والنسك شاة. قال أبوعبدالله «عليه السلام»: وكلّ شيء في القرآن أو فصاحبه بالخيار ويختار ما شاء، وكلّ شيء في القرآن فمن لم يجد كذا فالإولى الخيار. (البحراني: ١/١٩٤)

ب ـ قسم منه يمثّل موارد أخلاقيّة وتربوية واجتماعية ذكرها النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» للناس واستشهد بآية أو آيات، فذكرها المفسرون عند تفسير آية. ومثاله ما ذكر عند تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلّهِ وإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٥٦). فقد روي عن اسماعيل بن زياد السكوني عن جعفر بن محمّد عن آبائه «عليهم السلام» قال، قال رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»: أربع من كنّ فيه كتبه الله من أهل الجنّة: من كانت عصمته شهادة أنْ لا إله إلّا الله، ومن إذا أنعم الله عليه النعمة قال: الحمد لله، ومن إذا أصاب ذنباً قال: استغفر الله، ومن إذا أصابته مصيبة قال: إنّا لله وإنا إليه راجعون. (العياشي: ١/٦٩) ومثله ما رواه معاوية بن عمار الدهني، قال: سمعت أباعبدالله «عليه السلام» يقول، قال رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»: من أراد أن يظلّه الله في ظلّ عرشه يوم لا ظلّ إلّا ظلّه فلينظر معسراً وليدع له من حقّه. (المصدر السابق: ١/١٥٣)

ج ـ قسم يدلّ نصّاً على أنّ رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» فسّر الآية. وهو قليل في الواقع.

المحور الثاني: بيان الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» للقرآن

ذكرنا فيما تقدّم أنّ القرآن الكريم أُجمل في أكثر موارده، وأنّه بحاجة إلى تفسير الكثير من عباراته، وبيان أهدافه ومقاصدها رغم الفهم الإجمالي الذي كان المسلمون يتمتعون به. فكانت أقواله المنبع الأوّل للتفسير، كما أنّ سيرته العطرة وحياته الاجتماعية كانتا

تمثّلان النموذج الكامل والمصداق المتميّز للقرآن الكريم وأهدافه، وقوله «صلى الله عليه وآله وسلم»: «صلّوا كما رأيتموني أُصلّي»، وقوله: «خذوا عنّي مناسككم» يؤيّدان ما ذكرناه. فكانت السنّة مفسّرة للقرآن الكريم، ومبيّنة لمقاصده. ولا أدلّ على ذلك من الصلاة، فلم ترد في القرآن كيفيّة الصلاة، ولا أنواعها باستثناء صلاة الخوف، وعدم الجهر بها وأوقات الصلاة بشكل مجمل. وما بقي ورد في السنة الشريفة وقد أشار الإمام الصادق «عليه السلام» إلى ذلك حيث قال: «إنّ الله أنزل على رسوله الصلاة ولم يسمّ لهم ثلاثاً ولا أربعاً، حتّىٰ كان رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» هو الذي فسّر ذلك لهم وأنزل الحجّ فلم ينزل طوفوا اسبوعاً، حتىٰ فسّر ذلك لهم رسول الله». (العياشي: ١/٢٤٩)

أشكال بيان النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» القرآن للمسلمين:

يمكن تصور تفسير الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» القرآن للمسلمين بالاشكال التالية:

الف ـ الجواب عمّا كان يثور في أذهان بعض المسلمين من إشكال، وإزالة ما علّق في تصوّرات بعض الصحابة من تساؤلات لا يمكنهم حلّها كالسؤال الذي سأله أحد الأعراب عن السدر، فقد أشكل عليه أنْ يكون في الجنّة شيئاً يؤذي، فوضح له النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» ذلك. (الحاكم النيسابوري: ٢/٤٧٦)

وجاء به في رواية: «قال رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٩٧) فقام رجل من هُذيل فقال: يا رسول الله، من تَركه فقد كفر؟ قال: مَنْ تركه لا يخاف عقوبة ولا يرجو ثوابه». (السيوطي: ٤/٢٥٠)

فهذان يدلّان على أنّ ثمّة إشكالاً حصل في ذهن بعض الصحابة فسأل رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» عن ذلك، فبيّنه له بما أزال إشكاله.

ب ـ الجواب على ما كان يثور في أذهان المسلمين من معاني بعض مفردات النص أو عبارات قرآنيّة. فقد جاء عن عدي بن حاتم «سألت النبيّ «صلى الله عليه وآله وسلم» عن قول الله جلّ وعزّ غير المغضوب عليهم، قال اليهود». (الطبري: ١/٦١)

ونقل عن أبي سلمة بن عبدالرحمن أنّه قال: «جاء رجل إلى النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» يسأله

عن الكلالة، فقال: أما سمعت الآية التي أنزلت في الصيف: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَالَةِ﴾ (النساء: ١٧٦) فمن لا يترك ولداً ولا والد فورثته كلالة». (السيوطي: ٢٥٢/٤)

ج ـ تصحيح الاستنباط الخاطىء الذي مارسه بعض الصحابة، وفهمه من النص القرآني. فبعض الروايات يدلّ على أنّ الصحابة رغم اطلاعهم على مفردات اللغة لم يستوعب معنى النص، فاشتبه الأمر عليه، فلما ذكر ذلك للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم» أزال خطأه فقد نُقل عن عدي بن حاتم قال: «أتيت رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» فعلّمني الاسلام ونعت لي الصلوات كيف أصلّي كلّ صلاة لوقتها، ثمّ قال إذا جاء رمضان فكل واشرب حتّىٰ يتبيّن لك الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثمّ أتمّ الصيام إلى الليل ولم أدر ما هو، ففتلت خيطين من ابيض واسود فنظرت فيهما عند الفجر فرأيتهما سواء فأتيت رسول الله «صلّى الله عليه وآله» فقلت يا رسول الله كلّ شيء أوصيتني قد حفظت غير الخيط الابيض من الخيط الاسود، قال: وما منعك يا بن حاتم وتبسّم كأنّه قد علم ما فعلت. قلت فتلت خيطين من أبيض وأسود فنظرت فيهما من الليل فوجدتهما سواء فضحك رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» حتىٰ رؤى نواجذه، ثم قال: ألم أقل لك من الفجر، إنّما هو ضوء النهار وظلمة الليل. (الطبري: ١٠٠/٢)

والمثال الآخر ما رواه زرارة عن أبي جعفر «عليه السلام» قال: قال رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» ذات يوم لعمّار في سفر له: يا عمار، بلغنا أنّك أجنبت، فكيف صنعت؟ قال: تمرّغت يا رسول الله في التراب، قال، فقال له: كذلك يتمرّغ الحمار، أفلا صنعت كذا؟ ثمّ أهوىٰ بيده إلى الأرض فوضعهما على الصعيد ثمّ مسح جبينيه بأصابعه وكفيه إحداهما بالأخرىٰ ثمّ لم يعد ذلك. (الصدوق: ١٠٤/١)

وروى عن علي بن ابراهيم عن محمّد بن عيسىٰ عن يونس عن أبي أيوب الخزاز عن أبي عبدالله «عليه السلام» قال: سألته عن التيمّم، فقال: إنّ عمار بن ياسر أصابته جنابة فتمعّك كما تتمعّك الدابة، فقال له رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»: يا عمّار تمعّكت كما تتمعّك الدابة. (الكليني، كتاب الطهارة، باب صفة التيمم، ح ٤)

د ـ وفي كثير من الموارد تدلّ الرواية المنقولة عن الرسول «ﷺ» على أنّها لم تكن جواباً لسؤال، بل كان تفسيره «ﷺ» ابتداءً دون سبق سؤال. ففي قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ (الرعد: ١٣) جاء أخبرنا أبويحيىٰ الحيكاني، قال: أخبرنا أبوالطيب محمّد بن الحسن بالكوفة، قال: حدثنا علي بن العباس بن الوليد، قال: حدثنا جعفر بن محمّد بن الحسن، قال: حدّثنا حسن بن حسين، قال: حدّثنا معاذ بن مسلم الفراء، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لمّا نزلت ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أشار رسول الله «ﷺ» بيده إلى صدره فقال: أنا المنذر، ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ ثمّ أشار بيده إلى عليّ فقال: يا عليّ بك يهتدي المهتدون بعدي. (الحاكم الحسكاني: ١/٣٨٣).

وجاء في رواية أخرىٰ: حدّثني أبوالحسن الفارسي... عن جعفر بن محمّد عن أبيه عن آبائه: عن عليّ قال: قال رسول الله: يا عليّ فيكم نزلت هذه الآية: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ (الانبياء: ٢١) (المصدر السابق: ١/٥٠٠)

أوجه بيان السنة للقرآن:

تناول بعض المحقّقين التفسير الوارد عن الرسول «ﷺ» بالدراسة والتحليل لمعرفة أنواع تفسير السنة للقرآن ومحاورها، بعبارة أخرىٰ: هل اختصت السنّة المفسِّرة بتبيين المعنىٰ اللغوي للنصّ القرآني أو شملت موارد أخرىٰ غيره.

وقد ذكر الذهبي خمسة أوجه هي: الف ـ بيان المجمل في القرآن، وتوضيح المشكل، وتخصيص العام، وتقييد المطلق. ب ـ بيان معنىٰ اللفظ أو متعلّقه. ج ـ بيان أحكام زائدة على ما جاء في القرآن الكريم. د ـ بيان النسخ. هـ ـ بيان التأكيد. (التفسير والمفسّرون: ١/٥٥ ـ ٥٧)

أمّا محمّدهادي معرفة فإنّه ذكر أوجهاً تشترك مع ما سبق في أكثر الموارد وإن اختلفت العبارة: الف ـ ما ورد في القرآن بصورة تشريعات كليّة، لا تفصيل فيها ولا تبيين عن

شرائطها وأحكامها. ب ـ عمومات ذات تخصيص جاء العام في القرآن، وكانت موارد تخصيصه في السنة، وهكذا مطلقات ذوات تقييدات. ج ـ ما إذا ورد عنوان خاص في القرآن وكان متعلّقاً لتكليف أو قيداً في عبادة مثلاً... د ـ موضوعات تكليفيّة تعرض لها القرآن من غير استيعاب ولا شمول... اما الاستقصاء والشمول فالسنة موردها. هـ ـ بيان الناسخ من المنسوخ.

والملاحظ على هذا التقسيم أنّ الأمثلة التي ذكرت لذلك لم يصرّح فيها بنسبة المفسِّر للرسول «صلى الله عليه وآله وسلم»، كما أنّ التفسير في بعضها منسوب للعترة «عليها السلام»، والبحث في موضوع «التفسير في عهد الرسالة».

والشيعة وإن اعتقدوا أنّ كلام الائمة الاثني عشر «عليهم السلام» كلام رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» لكنّ محل النزاع التفسير الوارد عنه «صلى الله عليه وآله وسلم» وليس الوارد عن غيره. ولو كان البحث في تفسير القرآن بمطلق السنة لاستقام ما قاله الاستاذ معرفة.

أمّا الأمثلة التي سبقت علىٰ هذه الأوجه فهي:

١ ـ بيان المجمل، وتوضيح المشكل، وتخصيص العام، وتقييد المطلق. فهذه أربعة موارد تحت عنوان واحد. والموردان الاول والثاني من تقسيم الاستاذ معرفة يوافقان ما جاء عند الذهبي، باستثناء توضيح المشكل، فإن الاستاذ معرفة لم يذكره البتة.

بيان المجمل: أمثلة كثيرة، وأشهرها بيان النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» لمواقيت الصلوات الخمس وعدد ركعاتها، وكيفيّتها وشروطها، وما يرتبط بذلك، كلّه تفسير قوله تعالى: ﴿أَقِيمُوا الصَّلاة﴾ (البقرة: ٤٣) وهكذا الأمر بالنسبة للزكاة وغيرها.

توضيح المشكل: فقد ذكر فيه تفسير النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» الخيط الابيض من الخيط الاسود في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ (البقرة: ١٧٨) بأنّ المراد منه بياض النهار وسواد الليل، لا كما فهمه عدي بن حاتم، ويمكن أنْ يضاف إليه ما فعله عمّار بن ياسر في التيمّم بدلاً من الغسل كما تقدّم.

تخصيص العام: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ (الانعام:

٨٢) فقد فهم منه بعض الصحابة مطلق الظلم، فبيّن النبي «ﷺ» أنّه خصوص الشرك وليس مطلق الظلم، لأنّ من يشرك فقد ظلم نفسه.

تقييد المطلق: قوله تعالى في آية السرقة: ﴿ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ (المائدة: ٣٨) قيّدته سنّة النبي «ﷺ» باليد اليمنىٰ لا مطلق اليد.

٢ ـ بيان معنىٰ اللفظ أو متعلّقه: ولم يذكره الاستاذ معرفة في بحثه.

بيان معنىٰ اللفظ: ومثاله تفسير النبي «ﷺ» قوله تعالىٰ: ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينْ ﴾ (الفاتحة: ٧) باليهود والنصارىٰ.

والذي نراه أنّ «بيان معنىٰ اللفظ» يشمل كثيراً من الأمور، فإن ما فسّره النبي «ﷺ» يمكن درجه تحت عنوان بيان المراد من اللفظ، ولو جعله من تخصيص العام لكان أوجه. لأنّ المغضوب عليهم كثيرون، ولكنّ المراد هنا خصوص اليهود منهم وكذلك الضالّين. والمثال الذي تطمئنّ النفس إليه ما جاء في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ فَأُولٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيّينَ وَالصِّدّيقِينَ وَالشُّهَداءَ ﴾. (النساء: ٦٩) فقد روىٰ حذيفة بن اليمان (قال: دخلت على النبي «ﷺ» ذات يوم وقد نزلت عليه هذه الآية ﴿ فَأُولٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيّينَ وَالصِّدّيقِينَ وَالشُّهَداءَ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ فأقرأنيها «ﷺ» فقلت: يا نبي الله فداك أبي وأمّي من هؤلاء إنّي أجد الله بهم حفيّا! قال: يا حذيفة أنا من النبيّين الذين أنعم الله عليهم، أنا أوّلهم في النبوة وآخرهم في البعث، ومن الصدّيقين عليّ بن أبي طالب ولمّا بعثني الله عزّوجل برسالته كان أوّل من صدّق بي، ثمّ من الشهداء حمزة وجعفر، ومن الصالحين الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة، وحسن أولئك رفيقاً المهدي في زمانه. (الحسكاني: ١/١٩٩)

بيان متعلّق اللفظ: قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ﴾ (البقرة: ٢٥) فقد ورد أنّها مطهرة من الحيض والبزاق والنخامة. فالتفسير يشمل متعلّق الطهارة.

٣ ـ بيان أحكام زائدة على ما جاء في القرآن الكريم: ويشترك هذا مع ما جاء في كلام

الاستاذ معرفة. ومثاله محرّمات النكاح، فإنّ الآية التي تعرضت لبيان المحرمات لم تشمل حرمة نكاح المرأة على عمتها وخالتها. وقد بيّنت السنة الشريفة ذلك.

٤ ـ بيان النسخ: وذكر فيه الذهبي: «كأن يبيّن رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» أنّ آية كذا نسخت آية كذا، أو أنّ حكم كذا نسخ بكذا ويبدو أن في العبارة تسامحاً، لأنّ المثالين اللذين ساقهما لم يصرّح النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» فيهما بأنّ آية كذا نسخت آية كذا، بل مفاد كلامه «صلى الله عليه وآله وسلم» يدلّ على أنّ الآية منسوخة به. ولو كانت العبارة: حديثه «صلى الله عليه وآله وسلم» ناسخ لحكم الآية ومبيّن لنسخها لكان أحسن. ثمّ أنّ مثال نسخ الوصية للوارث بقوله: «لا وصيّة لوراث» لا ينطبق على العنوان، لأنّ «لا وصيّة لوارث» بعد ثبوت صحته خبر آحاد، وخبر الآحاد لا يثبت به النسخ، كما أنّه مخصّص لعموم الآية وليست ناسخاً لها.

أمّا المثال الثاني: «البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام»، فليس ناسخاً لآية حبس الزواني بل الناسخ قوله تعالى: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمَا مَائَةَ جَلْدَة ﴾ (النور: ٢) كما هو مفصّل في موضعه. أمّا أمثلة النسخ عند الاستاذ معرفة فهي روايات عن الائمّة «عليهم السلام».

٥ ـ بيان التأكيد: كأنْ تكون السنة مؤكّدة للحكم الذي جاء في القرآن الكريم ومقوية له. فقول النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»: «لا يحلّ مال امرىء مسلم إلّا بطيب نفس منه». يوافق قوله تعالىٰ: ﴿ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ (النساء: ٢٩)

وهناك موارد أخرىٰ يمكن إضافتها لما تقدّم منها:

١ ـ بيان المصداق: روي عن علي «عليه السلام» عن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»: «أنّه تلا هذه الآية: ﴿ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيها خَالِدُونَ ﴾ قيل يا رسول الله من أصحاب النار؟ قال: من قاتل علياً بعدي فأولئك أصحاب النار مع الكفار فقد كفروا بالحق لمّا جاءهم ألا وإنّ علياً بضعة منّي فمن حاربه فقد حاربني واسخط ربّي ثمّ دعا عليّاً فقال يا عليّ حربك حربي وسلمك سلمي وأنت العلم فيما بيني وبين أمّتي». (البحراني: ١/١٢٠)

٢ ـ بيان الجانب التاريخي: وفي هذا يبدو ما روي عن الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» يتناول

التاريخ في حال لا تشير الآية إليه أبداً. ففي قوله تعالى ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ... وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (البقرة: ٣٥ ـ ٣٦) روي عن رسول الله «ﷺ» قال: انّما كان لبث آدم وحوّا في الجنّة حتّىٰ أُخرجا منها سبع ساعات من أيّام الدنيا حتّىٰ أهبطهما الله من يَومهما. (البحراني: ١/٨٢)

٣ ـ يُلاحظ في بعض الموارد أنّ ما روي عن رسول الله «ﷺ» ليس تفسيراً لآية، وإنّما هو جواب عن سؤال ما، فأجاب «ﷺ» بجواب ثمّ تلا آية. كما روي عن الحسن السبط «عليه السلام» عن جدّه «ﷺ» في مسائل سئل[1] عنها اليهود منها ما قال اليهودي: يا محمّد فأخبرني لأي شيء فرض الله الصومَ على أمّتك بالنهار ثلاثين يوماً وفرض على الامم أكثر من ذلك. قال النبي «ﷺ»: انّ آدم لما أكل من الشجرة بقي في بطنه ثلاثين يوماً ففرض الله على ذريّته الجوع والعطش ثلاثين يوماً والذي يأكلونه تفضّل من الله عزّوجل عليهم وكذلك كان على آدم ففرض الله عزّوجل على أمتي ذلك، ثمّ تلا رسول الله هذه الآية: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُم تَتَّقُون أَيَّاماً مَعْدِودَات ﴾ (البحراني: ١/١٨٠) فرسول الله «ﷺ» لم يرد تفسير هذه الآية، ولكنّ جوابه جاء مرتبطاً بها، ومبيّناً جانباً منها.

ولا تنحصر أوجه بيان السنّة للقرآن فيما ذكرناه، فهناك موارد أخرىٰ من تفسير النبيّ «ﷺ» لا يمكن عدّها ضمن أحد الموارد السابقة إلّا بمشقّة لا حاجة إليها. ومن يراجع النماذج التي ذكرها الاستاذ معرفة في خاتمة بحثه ـ وهي قليلة ـ تؤيّد ما ذكرناه. فالأولىٰ إعادة النظر في ذلك لاستخلاص أوجه بيان السنة للقرآن بنحو يمكن معه بسهولة تقسيم موارد التفسير عن أساسها.

١. كذا في الأصل ويبدو أنّ الصحيح «سأل».

نتائج البحث :

تبيّن من البحث المتقدّم :

١ ـ أنّ المرأى الذي تؤيّده الشواهد المنطقيّة أنّ الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» فسّر القرآن الكريم على مستويين للعامة والخاصّة ، والثاني منهما كان شاملاً القرآن كلّه .

٢ ـ أنّ الفهم السائد للقرآن في عصر الرسالة كان ساذجاً وإجماليّاً .

٣ ـ قلّة التفسير الوارد عن رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» نصّاً .

٤ ـ أنّ كثيراً من الروايات التفسيريّه عن الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» ذكرها المفسرون عند تفسير الآية ، وهي ليست تفسيراً بالنص .

المصادر :

- ابن أبي الحديد، عزّ الدين بن عبدالحميد، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمّد أبوالفضل ابراهيم، ط٢ دار احياء التراث العربي، بيروت ١٣٨٥ ق - ١٩٦٥ م.
- ابن تيمية، احمد بن عبدالحليم، مقدمة في أصول التفسير، الترقّي، دمشق، ١٩٣٩م.
- ابن عطية، عبدالحق الغرناطي، المحرّر الوجيز، تحقيق أحمد صادق الملاح، القاهرة، ١٣٩٤ ق.
- ابوحيان، محمد بن يوسف، البحر المحيط، تحقيق صدقي محمد جميل، دارالفكر، بيروت ١٤١٢ ق.
- أبونُعيم، أحمد بن عبدالله الاصفهاني، حلية الاولياء وطبقات الاصفياء، ط١ نشر السعادة، مصر، ١٣٥١ ق - ١٩٣٢ م.
- الاسكافي، محمد بن عبدالله، المعيار والموازنة، تحقيق محمدباقر المحمودي، ط١، ١٤٠٢ ق - ١٩٨١ م.
- البحراني، سيّد هاشم، البرهان في تفسير القرآن، تصحيح محمود بن جعفر الموسوي، اسماعيليان، قم.
- البخاري، محمّد بن اسماعيل، الجامع الصحيح، دارالفكر، بيروت، ١٤٠١ ق - ١٩٨١م.
- الحاكم الحسكاني، محمّد بن محمّد، المستدرك على الصحيحين، يوسف المرعشي، دار المونة، بيروت ١٤٠٦ ق.
- الحاكم النيسابوري، عبيدالله بن عبدالله، شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، تحقيق محمّدباقر المحمودي، مؤسسة الطبع والنشر، ١٤١١ ق - ١٩٩٠ م، طهران.
- الحكيم، سيّد محمّدباقر، علوم القرآن، المجمع العلمي الاسلامي، طهران ١٤٠٣ ق.
- الذهبي، محمّدحسين، التفسير والمفسرون، ط٢، دار الكتب الحديثة، القاهرة،

١٣٩٦ ق ـ ١٩٧٦ م.
ـ السيوطي، جلال الدين بن عبدالرحمن، الاتقان في علوم القرآن، ط ٢، منشورات الرحمن، قم، ١٣٦٣ ش.
ـ الشريف الرضي، محمد بن الحسين الموسوي، نهج البلاغة، تحقيق محمّد محيى الدين عبدالحميد، المكتبة التجارية الكبرى، مصر.
الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٩ ق.
ـ العياشي، محمد بن مسعود السمرقندي، كتاب التفسير، تحقيق السيّد هاشم الموسوي المحلاتي، المكتبة العلميّة الإسلاميّة، تهران.
ـ القرطبي، محمد بن احمد الانصاري، الجامع لاحكام القرآن، دار احياء التراث العربي، بيروت ١٤٠٥ ق.
ـ الكليني، محمّد بن يعقوب، الاصول من الكافي، تصحيح على اكبر غفاري ط ٣ دار الكتب الاسلامية تهران ١٣٨٨ ق.
ـ معرفة، محمّدهادي، التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب، ط ١، منشورات الجامعة الرضوية للعلوم الاسلامية، مشهد، ١٤١٨ ق.